وجه المدينة

قصة

بقلم احمد هاشم الشريف

لقد استمر حديثنا ساعة ، أو ما يقرب من ساعة ، وأظن أن النقاش استغرق عقولنا فلم نحسب حساب الوقت ، وكان فتحى منكمشا فى غطائه على السرير ، وهو يرتعد من برد يناير وصوته الهادىء القوى النبرات يتسلل الى سمعى ، وينفذ من خلال ضلوعى ، اما انا فكنت اجلس على مكتبنا المشترك اصغى اليه وفى اعماقى عالم حائر مضطرب ، وفى يدى مرآة محطمة أعبث بها ، وكأنى ارثى لحالها ، وكان صوتى حادا ، نحيلا مثلى ، وخاصة عندما صحت فيه للمرة الثالثة :

— فتحى . . اسمعنى . . لاتقاطعنى . . إصغ الى اولا ثم تكلم كما يحلو لك .

ولكن فتحى لم يتوقف ، وكيف يتوقف؟ لقد كان حديثنا فاترا فى البداية على ما اذكر ، ويبدو لى انه وصل الآن الى مرحلة تسمح بالانفجار ، وليست هذه حالة نفسية مناسبة لان اخبره فيها عن الخطاب الذى وصل من والده ، يهدده فيها بقطع المصروفات ان لم يترك المظاهرات ويرجع فورا الى الريف ، كما انها ليست حالة نفسية مناسبة لان اطلب منه ان ينتهى من هذا الحديث ويبدأ فى تدبير مصيرنا ، مصيرى انا ومصيره هو . فلا شك ان المناقشة الهبت اعصابنا ، وجعلت من الصعب استعمال عقولنا استعمالا مثمرا ، وعند ما يتسلل الماء من خلال ثغرة ضيقة هينة الاتساع ، فقد يكون فى الامكان تدارك الامر ، وسد الثغرة . اما حين تتسع هذه الثغرة ، وتتحول الى فجوة واسعة المحيط ، فلن نتمكن بسهولة من منع الماء المتدفق ، كذلك الحال عندما نكون أمام عود ثقاب ، فلا شك ان مهمة اطفائه فى البداية اسهل بكثير من حالة أخرى ، نهمل فيها شأنه ، ونتركه يرعى فى هشيم وحطب جاف .

وحتى الآن لم يتوقف فتحى عن الكلام . .

وبدأت اتململ ، وسمعت حركة خفيفة عند النافذة ، واحسست بالرعب فى بداية الامر لانى لم اكن اتوقعها ، وتطلعت اليها لاتبين مصدر الصوت . . كانت المدخنة تهتز فى الخارج وتحدث صريرا بفعل احتكاكها بالحائط ، كذلك الصوت الذى نسمعه عند فتح الباب او اغلاقه ومعنى هذا ان الهواء بدأ يناوشنا

ليحطم ما تبقى من زجاج النافذة فقمت لاغلقها .

وفى حركة عصبية سريعة اغلقت وانا القى نظرة آسفة على شارع عدلى ثم على القاهرة كلها ، وقد غلفها الدخان وشملها سكون عميق ، وعدت الى مكانى لاعبث من جديد بالمرآة المحطمة وانظر اليها راثيا ، واتابع حديث فتحى ..

ومع ان فى امكاننا ان نتبين اسباب الوقائع الملموسة التى تعرض لنا ، الا ان مشاعرنا لا تخضع لهذا القانون ، فنحن نشعر احيانا بالحيرة والقلق والانقباض دون ان ندرك لذلك سببا واضحا ، وقد كان هذا الاحساس يراودنى فى تلك اللحظة ، مع ترقبى لحدوث شيء هام يقضي على هذا القلق .

وللمرة الثانية سمعت حركة خفيفة ، حسبتها فى البداية صادرة من انفتاح الباب ، ودخلت علينا مدام روجيه .. صاحبة البنسيون ..

وتوقف فتحى عن الكلام لاول مرة .

وتطلعت اليها ..

كانت ترتدى ثوبا بسيطا هادىء اللون ، كعادتها ، وكان وجهها الابيض يبدو صافيا ، وان شابه قليل من الاصفرار وكان شعرها الرمادى البديع ينسدل على خديها وعينيها الزرقاوين ، برغم محاولاتها المستمرة فى دفعه الى الخلف ، وباختصار لم يظهر تأثير الحادث على ملامحها بشكل واضح ، وفى الفة معتادة جلست على طرف السرير ، فاضطر فتحى الى الجلوس بعد ان كان مستلقيا تماما ، وان كان لم يتخل عن غطائه لشدة البرد وبدأت مدام روجيه تهمهم وهى تبسط كفيها الى اعلى فى شكر وامتنان ، وفهمت انها فرحة بنجاة « البنسيون » من موجة الدمار التى اجتاحت المدينة ، ثم ما لبثت ان صاحت بلهجتها التى اعتدناها :

ـ هوه المصريين «متوحش» كده .. كله حريق ، كله قتل ونهب . البلد كله كله .. نحن متوحشون .. يالها من كلمة ..

كنت مستعدا للرد عليها ، بحماسي ووطنيتى وايمانى ، وكنت مستعدا لان اشرح لها الظروف التى احاطت بنا ، والموقف الذى افلت من يدنا ، والعناصر التى تدخلت وافسدت خطتنا ، ولكن صبرى كان اقوى من حماسي ، والمى كان اعمق من ان افصح عنه وجرحى كان جرحا من الداخل ، يؤلمنى دون ان ينزف دما ..

ولم يكن فتحى اقل منى وطنية ولا ايمانا ولا حماسا فى شرح الموقف لها ، ولكنه سكت . تبادل معى النظر وسكت . كان هناك شيء فى داخلنا ينتصر على حماسنا ، ويسمو على اندفاعنا ، وينتهى بنا الى الصمت ، واحيانا يكون ذلك اقوى وابلغ من اى حديث وانى لعلى يقين من ان الصمت مؤلم ، ولكن ذكر الحقيقة ، عادة يكون اشد ايلاما .

وطوال فترة صمتى وانا اتطلع الى مدام روجيه .. كانت نظراتى تستريح على وجهها ، وقلبى يخفق لها فى صمت وعيناى فى عينيها تكشفان عن حيرتى ، حيرتى من ذلك التناسق الذى اراه فى وجهها ، والذى يبرز ملامحها فى دقة عجيبة ، وحيرتى من ذلك الشعاع الجذاب

الذى يتلألأ فى عينيهـــا وحيرتى امام جمالها الاوربى الذى كثيرا ما ناقشـــت فتحى فيه ، وتطور بيننا النقاش ، وهل الجمال الا تناسق فى التقاطيع ؟ وكان فتحى يضحك منى عندما اتحمس ، واصرخ فيه بصوتى الحاد :

ـــ فتحى . اسمعنى . لا تقاطعنى . اصغ الى اولا ثم تكلم كما يحلو لك .

واحيانا كان فتحى يقهقه ساخرا منى عندما اعترف له بحبى لمدام روجيـــه ، وافسر له الحب بانه جاذبية ، وما دامت المدام جذابة ، فلا اســـــتطيع الا ان احبها .

ولم نكن ندرس الفلسفة او علم الجمال حتى تدور مناقشاتنا فى هذه المواضيع ، وانما كنا ندرس بكلية الحقوق ، وليس فيها ما يمت بصـــلة القربى الى هـــذه المناقشات ، اللهم الا اذا اعتبرنا القانون والاقتصاد والشريعة علوما ، تبحث فى الجاذبية وتناسق التقاطيع . ومع هذا فلقد كنت اهتم من كل شيء بوجهـــه ، الوجه فقط . وارى فيه كل ما يعنينى ، فتحى يهمنى فيه وجهـــه ، اعرف منه ان كان راضيا ام غاضبا ، موافقا ام معارضا وارى فى عينيه صورة دقيقة لما يحدث فى اعمق اعماقه ، وعندما انظر اليه ، واستغرق فى النظر ، تمرح عيناى فى جبهته الفسيحة ، وشـــــعره المرجل ، وعينيه الواسعتين بحاجبين فوقهما كانهما تاجان من تلك التى نسمع عنهـــا فى الاساطير . و .. «مدام روجيه» يهمنى فيها وجهها المتناسق الجذاب ..

ومدينتى الجميلة التى اتطلع اليها كل يوم من هذه النافذة ، واتاملهـــا ، فى الصباح القى عليها نظرة وانا ارتشـــف الشاى قبل ذهابى الى الكلية واراقب تورد خديها عندما تصحو وقد طوقتهـــا الشمس (تلك العلبة السحرية المستديرة) بعدد لا حصر له من الايدى الطـــويلة الشفافة ، وكانما هى عاشق يطوق حبيبته بعد طول غيبـــة ، فلا يكتفى بذراعين ، وانما يود لو طوقها بالف ذراع . واراقب ابراج كنائسها وقباب مساجدها ، وقد غمرتها الشمس معا فى عدل ، واراقب عماراتهـــا الطويلة الطيبة وهى تتحمـــل عاديات الطبيعة ، وبيوتها القصيرة الماكرة وهى تتوارى وتحتمى فى الشـــواهق . واراقب المدارس التى يمرح فيها صغارنا فى امان ويدق جرس له دوى رتيب ، يفزعون منه فى البداية . ثم يطمئنون ثم ينفضون ايديهم مما هم فيه من لهو برىء ثم يقبلون على تحصيل العلم فى اتزان الرجال الذين يدركون الفـــارق بين الجد والهزل ، ولم لا يكونون كذلك ومنهـــم المحامى الذى سيدافع عن هذه المدينة ، والمهندس الذى سيجمل وجهها والطبيب الذى سيعالج كهولتها ، ويجدد شبابها ويعيد النبض الى قلبها ، والضابط الذى سوف يحرس هدوء احلامها ويمنع القدم الغريبة من ان تدوس على طرف ثوبها .

والمســـــتشفيات ، كل يوم اراقـــب المستشفيات ، من هذه النافذة ، واتاملها لابد وان فيها الآن مرضى قليلين ، وسيقل عددهم بالتدريج ، ولا بد ان فيهـــا الآن نساء حوامل يضغطن على الشفة السفلى من الالم ، ثم يلدن صغارا يصرخون وهم يلتفون داخل الاقمطة ويهدأون بعد ذلك عندما يصافحهم عطر ارضنا الطيبة . ولا بد وانهم ينمون بعد ذلك ، كمـــا تنمو البذرة الدقيقة فى باطن الارض ، وتصبح

شجرة هائلة ، تلفحهم شمسنا فتتحول سحنتهم الى اللون الاسمر الخفيف . ويعبون من خمر نيلنا فينبعث من عيونهم ذلك البريق الاخاذ العميق ، ثم يصبحون مثل المئات والالوف والملايين التى تسير فى هذه المدينة لهم رائحتهم ، وبساطتهم واقبالهم على الحياة ..

كل يوم تدور فى راسي هذه الخواطر وانا اراقب وجه المدينة . واقول لنفسي وعلى شفتى شبح ابتسامة : ياله من وجه جميل يضارع وجه مدام روجيه .. ها هى جبهتها الفسيحة الممتدة .. وهاتان عيناها .. وهذا فمها الذى تتدفق منه الضحكة ..

وفى المساء القى نظرة سريعة على وجهها ، وارى شواهقها وقبابها وابراجها وقد غمرها ذلك اللون البرتقالى البديع ، والعلبة السحرية المستديرة تجمع الايدى الطويلة الشفافة مجتهدة الا يفلت منها واحد ، وكأنما العاشق قد مل تطويق حبيبته طول النهار ، فانسحب فى هدوء ليرحل الى حبيبة اخرى يهواها ويتلهف على لقائها .

قالت مدام روجيه وهى تهم بالقيام :

ـ طلباتكم ايه .. عندى كل شيء .. الجيش نزل المدينة والتجول ممنوع ..

وشكرها فتحى وهى تنصرف وتغلق الباب خلفها ، وانا لم اتحرر بعد من سلطان سرحانى ..

وشعرت من جديد بالحيرة والقلق والانقباض ، وترقب الحدث المفاجيء المنتظر ، وعاد فتحى الى حديثه بعد ان انكمش مرة اخرى تحت الغطاء وهو يرتعد من برد يناير ، وعدت انا اعبث من جديد بالمرآة وانظر اليها فى رثاء وانصت الى صوت فتحى المختلط بصوت اهتزاز المدخنة ، وكان واضحا ان الاهتزاز قد زاد الآن كأنما هى (بلياتشو) سيفقد اتزانه ويسقط فى الحال من فوق الحبل لخطورة اللعبة التى يقوم بها .

وفتحى .. انه يحدثنى الآن عن (عبد الغفار) زميلنا فى الكلية ، الذى قبض عليه البوليس وهو يطفيء النار فى احد الفنادق ، ويمنع المخربين من النهب والتدمير ، ثم يحدثنى عن وطنيته واخلاصه ، وانا فى حيرة من امرى وامر فتحى وامر زميلنا فى المظاهرة ، الذى لا نعرف مصيره الآن ، واخيرا قلت :

ـ والان لقد انتهى كل شيء .. لماذا لا نسافر غدا الى الريف ؟

ـ ونترك عبد الغفار ..

ـ وهل فى امكاننا شيء ، ان القضية ليست قضية عبد الغفار ، انها قضية الشعب الذى اودعوه السجن بتهمة الوطنية واطلقوا سراح المجرمين .

ونظرت الى ساعتى ، فاذا بها الواحدة بعد منتصف الليل ، واخذت اتأمل وجهها وعقاربها التى تتحرك فى تباطؤ مثير ، يالنا من اغبياء .. فى البداية نظن اننا احرار ، نجرى هنا وهناك ، وفى كل اتجاه ، وفى النهاية نكتشف اننا ندور حول انفسنا ، كعقارب هذه الساعة ، ثم نكتشف ايضا اننا داخل علبة مغلقة.

وهز فتحى راسه فى اصرار على البقاء وعدم اقتناع بضرورة سفرنا ، فاخبرته بخطاب ابيه الذى يحمل له

التهديد ، اذ لم يكن امامى مفر من ذلك ، لكنه ظن اننى ادبر له حيلة ، لأجبره على السفر دون ان يكون هناك خطاب حقيقى ، وانطلق يؤكد لى اصراره على البقاء وعلى التظاهر من اجل عبد الغفار ، والبحث عنه بأية طريقة ، وبأى ثمن .. وتطلعت اليه ..

تطلعت الى الزعيم الذى قاد مظاهرة اليوم احتجاجا على قتل عساكر بلوكات النظام فى الاسماعيلية باخس طريقة يلجأ اليها مستعمر ، ووجدت امامى شابا يعزم ويصمم قبل ان يمر بمرحلة التفكير ، اى تفكير ، وتذكرت أن فتحى — وايضا انا — فى السن التى يحلو لاصحابها ان يبدوا اكبر من اعمارهم ، ويختالوا بقوتهم ويحلقوا فى سماء الاماني دون أن أن يرتكزوا الى سند من الواقع .

ومرت فترة صمت قصيرة ولكن قلقى اطالها ، وفتحى منكمش امامى على السرير لا يتحرك ولا يتكلم وانا جالس الى مكتبنا المشترك اعبث بالمرآة المحطمة .

وللمرة الثالثة سمعت حركة خفيفة ، واكاد اجزم انها جاءت من خلف الباب .. هل اقترب وقوع الحدث الذى كنت انتظره .. ؟

من القادم .. ما الذى يخبئه لنا القدر ياترى ؟

كان هناك احتمالان ..

الاول : أن تكون مدام روجيه ...

الثانى : ان يكون احد رجال البوليس السرى ، جاء ليقبض علينا ..

وكان الاحتمال الاول ضعيفا ، وليس امامنا الا ان نستعد لمصير مجهول ، كمصير عبد الغفار .

الآن ، لقد انتهى كل شيء يا فتحى ؛ واقتربت نهايتنا ، ولم يبق الا ان نسمع طرقا خفيفا مؤدبا على الباب ، ثم دويا مروعا مخيفا ، ثم يتحطم الباب ويدخل البوليس ويقبض علينا ويسوقنا الى حيث يرقد عبد الغفار ، ثم يوجه لنا تهمة الوطنية .. ويالها من تهمة .. ها هو خطاب أبيك يافتحى .. انه خطاب حقيقى كنت اخفيته عنك حتى لاتنزعج. اقراه لتصدق .. اقراه لنسافر بعيدا الى الريف .. وننجو بوطنيتنا .

لكن فتحى لم يتحرك ، ولم يجبنى بالرفض او القبول ، وتركنى اصارع الم الحيرة وحدى .. ماذا دهاه ؟ ربما اذهلته المفاجأة ، وربما باغته الصوت المتلصص خلف الباب كما باغتنى ولعله تجمد الآن من الرعب ، لا من برد يناير ، وهو يتصور نفس المصير الذى تصورته ، فسوف لا يرحموننا عندما يقبضون علينا .

وأن يهجم عليك انسان ما ويقتلك فى الحال خير الف مرة من عذاب الانتظار ، والفأر يتعذب من مداعبات القط الذى اصطاده . يتعذب وهو يهرب فيلاحقه بمخلبه ، ويتعذب عندما تلامسه شوارب القط واسنانه دون ان يناله اذى ، والذى يعذبه شيء واحد هو الامل . الامل فى ان ينجو مع انه يعلم النتيجة مقدما ، والامل فى ان يعيش وهو يرى نفسه فى دوامة الموت ، والمحكوم عليه بالاعدام يموت الف مرة قبل ان يلتف الحبل حول رقبته ، وفى كل مرة يتعذب ايضا .... الامل يعذبه .

وانا وفتحى .. ما ذنبنا حتى نتعرض لهذا العذاب ؟

رتبت أموري ، وقررت ان اسلم نفسي
بلا جدال وبدون ضجة ، حتى لا تشعر
مدام روجيه وتظن اننى من المجرمين . . .
لست مجرما . لم اسرق . لم اقتل .
مم اخاف . . تظاهرت ؟؟ نعم تظاهرت . .

لست جبانا حتى انكر ذلك .

وفكرت فى المقاومة . .

ليكن عددهم كبيرا ولكنى سأقاوم ؛
ستكون معركة غير متكافئة ، يلتهم القوى

فيها الضعيف ، ولكن المهم ان اقاوم ، فالضعيف يحارب بقوتين : قوته العادية، وقوة الدفاع عن كرامته وضعفه ضد طغيان القوى .

وفتحت الباب .. ولم أجد أحدا ..

آه .. لقد اختبأوا منى فى الظلام ليوهمونى بالحرية والامن ، حتى يطيلوا عذابى ..

وصحت اسأل عن الطارق ، واجابنى الصدى ..

وفى سرعة اغلقت الباب ، وانا فرح بالنجاة ، وبأن كل ما سمعته كان وهما ، انها السرعة التى تسيطر على اعمالنا عند ما نسمع شيئا جديدا مثيرا مفاجئا ، كالنجاح فى الامتحان ، والرسوب ووقوع حادث تصادم ، ووفاة احد الاعزاء .. واقبلت على فتحى لاطمئنه بالنتيجة ، ولكنه لم يتحرك من مكانه ، ولدهشتى وجدته مستغرقا فى النوم . اذن فهو لم يكن مستيقظا فى البداية ولم يسمع صوتا ، ولم يتجمد من الرعب ، ولم يتصور نفس المصير الذى تصورته .. ومن يدرى ربما لم يكن هناك صوت على الاطلاق ..

وخطوت الى النافذة ، ووقفت اتأمل الخارج بعد الكارثة . كان الليل يحتضن المدينة فى لوعة ، كأم مذهولة تعانق ولدها المريض ، والظلام يخفى عنى اغلب ملامحها ، وكأنه ضمادات سوداء تحيط بجراحها الغائرة ، والقباب الجميلة والابراج الشاهقة تبدو لى من بعيد كأشباح حزينة فى ملابس الحداد ، والمدارس سوف لا يدق فيها الناقوس الذى ينبه صغارنا الى وقت الدرس ، والمستشفيات لابد وانها ملأى الآن بالجرحى والمصابين ، والشوارع المزدانة والاضواء الخاطفة والضجة المتصلة لا وجود لها الآن ، تلاشت الزينة وخبت الاضواء وماتت الضجة .

تركت النافذة ، واغفيت لحظة ، قمت بعدها لاجد ضوء النهار يغمر الحجرة ، والمدخنة مازالت تهتز ، وفتحى اعد حقائبنا للسفر ، وكان قد استيقظ قبلى ، وقرأ الخطاب ، وادرك الامر على حقيقته ، وفى ظل حالة نفسية اخرى غير تلك التى كانت تسود المناقشة فى الليل .

وتناولت المرآة المحطمة من فوق مكتبنا المشترك ، وانا مصر على ضرورة اخذها معنا ، نعم هى محطمة ، وقد اعبث بها دون منفعة فترة من الزمن ، ولكن سيأتى الوقت الذى اجمع فيه اطرافها ، واعيدها الى سيرتها الاولى ، واجلوها حتى تبدو صافية رائقة فى بياض مدام روجيه .

وبعد نصف ساعة تقريبا وصلنا الى المحطة ، وتحرك بنا القطار ، ولم استطع منع نفسى من القاء نظرة اخيرة على وجه المدينة .

كان الضباب الذى يتكاثف عادة فى الصباح يخفى عنى اغلب ملامحها ، جبهتها الفسيحة وخديها المتوردين ، فلم الحظ شيئا يقنعنى بجمال وجهها ، ولكنى لمحت مدخنة على مرمى البصر .

وتذكرت المدخنة الملتصقة بجوار نافذة حجرتنا ، واهتزازها المستمر ، والبلياتشو الذى سوف يسقط حالا من فوق الحبل .. اذ كانت اللعبة خطرة .